ثنائيتا (الشباب والشيب) و(الحياة والموت) في قصائد جمهرة أشعار العرب

صبيحة الخطيب* بتول دحدوح**

*طالب دراسات عليا (ماجستير)، قسم اللغة العربية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة حلب

**أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة حلب

الملخص:

تعدّ الثنائيات الضدية ظاهرة بارزة في الشعر، وتشكّل نسيجاً لغوياً متبايناً فاعلاً يترجم مكنونات الشاعر الداخلية، ويعكس مدى تفاعله مع القيم والظواهر المحيطة، إلى جانب حسنه في اللفظ وشدة تأثيره في النفس، وهذا ما جعلنا نتخذ منها سبيلاً إلى الولوج في قصائد جمهرة أشعار العرب التي قدَّمت عالماً من الصراع الوجودي، واحتضنت قيم الحياة الإنسانية ضمن أسلوب إبداعي فني مؤثر. ويقوم هذا البحث على دراسة الثنائيات الأكثر جدلاً في طبيعة النفس الإنسانية في قصائد الجمهرة، وهي: ثنائية الشباب والشيب، وما يتعلق بها من ثنائيات القوة والضعف، الماضي والحاضر، الفتوة والهرم، والصحة والسقم، وثنائية الحياة والموت، وما يرتبط بها من ثنائيات الوجود والفناء، والحضور والغياب، والحركة والسكون، ورصد قيمتهما الوظيفية، وأبعادهما الدلالية في النص، ومدى علاقتهما مع فكر الشاعر وبيئته المحيطة. وبدأ البحث بمقدمة في التضاد والثنائية الضدية وقدرتها على التعبير عن الفكر، والطبيعة الإنسانية، وتحقيق الشعرية في النص، ثم تناول نماذج شعرية لبعض شعراء الجمهرة بالدراسة والتحليل اعتماداً على المنهجين الوصفي، والتحليلي من خلال تتبع تلك الثنائيات الضدية والوقوف عند أبعادها الفكرية والفنية، ومدى تباين طرق عرض مظاهرها، وتنوع مفاهيمها عند صاحب كل قصيدة وفقاً لمنظوره، وخُتم البحث بالنتائج وقائمة بأسماء المصادر والمراجع.

الكلمات المفتاحية: الشباب، الشيب، الحياة، الموت، قصائد، جمهرة.

ورد البحث للمجلة بتاريخ 23/ 3/2023م

قُبل للنشر بتاريخ 2023/06/25م

مقدمـة:

تعدّ الثنائيات الضدية "ظاهرة فلسفية انتقلت إلى النقد وطُبّقت على الأدب. وهي انعكاس لمظاهر الكون، وتعبير عن النفس البشرية المتقلبة وصراعها في هذا الوجود، واللغة انعكاس لهذا الكون، والأدب تعبير عن هذه النفس"[1].

وتؤدي الثنائيات الضدية دوراً جمالياً في الخطاب الشعري؛ تعيد النظر إليه عندما تسود فيه الدلالات اللغوية والمعاني المتقابلة المتباينة الغائرة في أعماق النفس، وتشكّل "بنية لغوية فاعلة في خلق تصورات معينة تجاه الكون والوجود"[2]، وتجنح بالنص إلى الشعرية والتكثيف.

التضاد ودلالته الفنية:

يعدّ التضاد مفهوماً بلاغياً قديماً، فهو نوع من أنواع المحسنات البديعية المعنوية، ومرادف للطباق الذي قال فيه أبو هلال العسكري: "المطابقة في الكلام هي الجمع بين الشيء وضده"[3]، وقد أشار الجرجاني إلى أهمية التضاد وأثره في اللغة بقوله: "إن الأشياء تزداد بياناً بالأضّداد"[4]، والضّد إلى جانب أنّه حلية وزينة في اللفظ، هو "مظهر من مظاهر التناسب بين المعاني، حيث أنّه يجمع بينها، وإن كانت متخالفة ومتضادة، لأن بين المعنى وضده علاقة، وعلاقة الضدية لا تعني الانفصال والتباعد، فالضد لا يمنع الصلة والرابط بين المعنيين، بل يزيد في جمال الكلام والتنبيه إليه." [5]

---

[1] زيتونة مسعود، علي: الثنائيات الضدية في لغة النص الأدبي، جامعة الوادي، ص 156.

[2] انظر: قادرة، غيثاء: 2012م، الثنائيات الضدية وأبعادها في نصوص من المعلقات، مجلة دراسات في اللغة العربية، جامعة تشرين، العدد العاشر. ص28.

[3] العسكري، أبو هلال(-395هـ):1991م، كتاب الصناعتين، تح مفيد قميحة، ط1، دار الكتب العلمية، لبنان، ص339.

[4] الجرجاني(-471هـ):1991م، كتاب أسرار البلاغة، تح محمود محمد شاكر، دار المدني -جدة، ط1، ص23.

[5] زيتونة مسعود، علي: الثنائيات الضدية في لغة النص الأدبي، المرجع السابق، ص 164.

الثنائيات الضدية في قصائد جمهرة أشعار العرب:

يعدّ كتاب جمهرة أشعار العرب من أهم كتب المجموعات الشعرية القديمة، جمعها أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي[1]. ومن معاني الجمهرة:" الكثرة والشيوع، والجمع والتفوق"[2]، فما يريده القرشي تقديم أشهر القصائد لأشهر الشعراء العرب القدامى مختزلاً بهم عصور الشعر القديم، وخير ممثّل عن شعرائه، وقد وزعها في سبع طبقات، وكل طبقة تضمّ سبع قصائد شعرية لسبعة شعراء، ليضمّ الكتاب بذلك تسع وأربعين قصيدة مختارة لتسعة وأربعين شاعراً من الجاهليين والمخضرمين والأمويين.

وشعر العرب الذي حفظه لنا كتاب الجمهرة سجل حافل، وبيئة خصبة لدراسة ملامح القيم الإنسانية المتعلقة بالفترة التي عاشها الشعراء عبر العهود، وقد تجلّت في قصائدها المعاني المتقابلة الغائرة في أعماق النفس التي تجسدها ثنائيات ضدية متوازية متكافئة وموجودة جنباً إلى جنب في حياة الشاعر الذي قدّم في صوره عالماً من الصراع الوجودي عبر بنى لغوية متباينة ومتمايزة أظهرت وعيه الإنساني بأبعاد هذا الصراع بعد أن عايش الحياة بتناقضاتها.[3] وقد اخترنا أبرز الثنائيات الوجودية المتأصلة في النفس في قصائد الجمهرة، وهي: ثنائيتا(الشباب والشيب)و(الحياة والموت)وما بينهما من ارتباط وعلاقة؛ فالشباب غالباً مرتبط بالحياة المتجدّدة، والشيب مرتبط بالموت ونذير له.

أولاً: ثنائية الشباب والمشيب:

[1]) لم تعرف له كتب التراث ترجمة بين الأدباء واللغويين والرواة إلا عندما ذكره أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني (390– 456هـ) في كتابه العمدة، ونسب إليه كتاب الجمهرة.

[2]) ابن منظور(–711هـ): لسان العرب، دار إحياء التراث العلمي، بيروت، ج2، ص370.

[3]) ينظر قادرة، غيثاء: 2012م، الثنائيات الضدية وأبعادها في نصوص من المعلقات، المرجع السابق، ص26 –29.

يودّ الإنسان لو أنَّه يعيش شاباً أبد الدّهر، وأن يبقى في عهد الصبا والقوة والفتوة، ويخشى وجلاً من الشيب، نذير الهرم والضعف والعجز، إلا أنَّ مشيئة الله عز وجل تقضي أن تتساقط أوراق الزمن، فيحلّ خريف العمر بعد انقضاء ربيعه. وقد تضمّنت قصائد جمهرة أشعار العرب صراعاً واضحاً مع الزمن وجدليته، وقد عبّر كل شاعر عن ذلك برؤيته الخاصة، واختلفت تلك الرؤية فيما بين الجاهلية والإسلام اختلافاً واضحاً.

أ- شعراء الجاهلية:

رأى الشعراء في الجاهلية الشباب سبيلاً إلى الفتوة، واللذة، واللهو، وتحقيق الذات، وما إن اشتعل الرأس شيباً حتى تنسك بعضهم وارعوى، ورأى الشيب رمزاً للحكمة، والوقار، والخبرة، كما قال دريد بن الصُمّة[1] في أخيه عبد الله:

صَبَا ما صَبَا حَتّى عَلا الشّيبُ رأسَهُ فلمَّا عَلاهُ قَالَ للبَاطِلِ: ابعُدِ[2]

يختزل الشاعر من خلال الثنائية (صبا، ما صبا) عمراً قضاه أخوه عبد الله في المغامرات والاستمتاع بالملذات في عهد الشباب، ثم عزوفه عن مفاتن الحياة ما إن أدركه الهرم بالمشيب، ويتكئ على التكرار بقوله: (صبا/ ما صبا، علا/ علاه) لتأكيد المعنى، وتأتي ثنائية (الباطل وبعده) لتشير إلى فلسفة الشاعر في الشباب والمشيب، فالإنسان في شبابه يغرق في إقباله على اللهو والملذات، ليكون ظهور الشيب كفيلاً باتعاظه بعد أن مرّ برحلة عمر طويلة، وأحس بدنو الأجل.

ومنه قول زهير بن أبي سلمى[3] في الشباب والمشيب:

رأَيْتُ سَفَاهَ الشَّيْخِ لا حِلْمَ بَعْدَهُ وأنَّ الفَتَى بَعْدَ السَّفَاهَةِ يَحْلُمِ[1]

---

[1] هو أحد الشجعاء المشهورين، وذوي الرأي في الجاهلية، وقد توفي في يوم حنين من العام الثامن للهجرة. راجع ابن قتيبة: 1967م، الشعر والشعراء، تح أحمد محمد شاكر، ج2، دار المعارف، القاهرة، ط2، ص 749-752.

[2] القرشي: 1981م، جمهرة أشعار العرب، تح محمد علي الهاشمي، جامعة الإمام محمد بن سعود، لجنة البحوث والترجمة والتأليف، ص 604.

[3] شاعر فحل من فحول الشعراء في الجاهلية، وهو من مزينة، وكانت محلّتهم في بلاد غطفان. راجع البغدادي(-1093هـ): خزانة الأدب ولبُّ لباب لسان العرب، تح عبد السلام هارون، ج2، مكتبة الخانجي، القاهرة، ص332.

يقدّم زهير في سياق الحكمة ثنائيات متقابلة متضادة على التوالي (الشيخ– الفتى، الحلم –السفاهة)، ويبدأ بالشيخوخة وتقدم العمر منبهاً إلى تدارك الأمر قبل فوات الأوان من خلال توظيف اللغة ما بين التركيب الاسمي (لا حِلمَ بعده) والتركيب الفعلي(يَحلُمِ)، ويرى في الشباب سفاهة وطيشاً، وفي الشيب عقلاً وحكمة، وأن الإنسان يعيش في ضدية متتالية، فبعد شبابه تأتي كهولته، وبعد طيشه يأتي حلمه.

ويقول المُتَنَخِّل الهُذليّ[2]:

وما أنتَ الغداةَ وذِكرُ سلمى وأمسى الرّأسُ منكَ إلى اشمطاطِ

فَحُورٍ قَد لَهَوْتُ بِهِنَّ حِيْنَاً نَوَاعِمَ، فِي المُرُوطِ، وفي الرِّيَاطِ [3]

يستنكر المتنخل تعلق قلبه بذكر امرأة أحبَّها، وقد اختلط سواد رأسه بالمشيب في شيء من الوجل، فكان إحساس العربي بارتحال الشباب، وانتشار الشيب، وما يحمل معه من ضعف وسقم يولّد الحزن على ما فات من أيام الشباب أيام اللهو والقوة. وكأنّ في هذه الأبيات دعوة خفية ونصيحة للتأمل في الحياة والتعقل بدلاً من اللذات واللهو، وحكمة يقدمها الجاهلي حكمة بعد أن بلغ سن الشيب.

ويقول محمد بن كعب الغنوي[4] في مرثيته التي يبكي فيها أخاه أبا المغوار:

تَقُولُ ابنةُ العبسِيِّ قَدْ شِبتَ بَعْدَنَا وكُلُّ امرئٍ بَعدَ الشّبابِ يَشيبُ

وما الشّيبُ إلا غَائِبٌ كَانَ جَائيَاً ومَا القَولُ إلّا مُخطِئٌ ومُصيبُ

---

[1] السفاه: خفة الحلم، أو الجهل. الحلم: الأناة والعقل. القرشي: جمهرة أشعار العرب، المصدر السابق، ص 296.

[2] هو مالك بن عويمر شاعر جاهلي محسن من شعراء هذيل، ولم تُقل كلمة على الطاء أجود من قصيدته هذه. راجع ابن قتيبة(–276هـ): الشعر والشعراء، ج2، المصدر السابق، ص659.

[3] اشمطاط: اختلاط البياض والسواد. القرشي: جمهرة أشعار العرب، المصدر السابق، ص 607.

[4] جاء اسمه في الجمهرة (محمد بن كعب بن سعد الغنوي) أما سائر المصادر فلم تذكر محمداً، وإنّما تكاد تتفق على أن اسم هذا الشاعر هو كعب بن سعد الغنوي، ولعلَّ زيادة اسم محمد هو من فعل النساخ أو التصحيف. ولأصحاب التراجم في تحديد عصره مذاهب، ودلائل جاهليته أقوى؛ ولا سيّما أنه في مرثيته يرثي أخاه أبا المغوار وقد قتل في حرب ذي قار التي كانت قبل الهجرة بأكثر من نصف قرن. راجع الزركلي، خير الدين: 2002م، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت– لبنان، ط15، ج5، ص227.

تَقُولُ سُلَيْمى ما لِجِسْمِكَ شَاحِباً كَأَنَّكَ يَحْمِيْكَ الشَّرَابَ طَبِيبُ

فَقُلْتُ، فَلم أَعِي الجَوابَ، ولَمْ أُلِحْ وللدَّهْرِ فِي الصُّمِّ الصِّلَابِ نَصِيبُ

لَعَمْرِي لَئن كانَتْ أَصَابَتْ مَنِيَّةٌ أَخي والمَنَايَا للرِّجَالِ تُصِيْبُ[1]

تظهر جمالية الثنائية الضدية حسب كيفية توظيف مفرداتها في السياق من تقديم وتأخير وتوكيد، وإجمال وتفصيل، وقد برع الشاعر في توظيف هذا البعد الفني للتضاد من خلال قوله:(قد شبت، الشباب، يشيب، الشيب، غائباً، جائياً، مخطئ، مصيب)، ويعبّر عن معاناته في فقد الشباب والحياة مستثمراً الحوار، وقد استهلّه بالأنثى التي عرف عنها تلهفها لقيمة الشباب بما تحمله من حب واندفاع وقوة، فخاطبت الشاعر مستنكرة شيبه، وكأنها تؤكد أنّ عهدها به شباب مزهر، وما هذا الشيب إلا طارئاً جاء بعدها. لكن الشاعر يقرر حقيقة مسلمة، وهي أنّ سنة الكون تقضي أنّ الشباب يمضي إلى الشيب، كما أن الحياة تفضي إلى الموت، ثم يعمد إلى أسلوب النفي والإثبات التي تحمل دلالة القصر، ليؤكد هذه الحقيقة المرة، فالشيب ليس إلّا الغائب مادياً؛ الحاضر روحياً، فهو يجثم في قلب الشباب. ونراه يؤطر لثنائية أخرى تنتمي إلى قول الإنسان (مخطئ/ مصيب)، فكما أنَّ كلماتنا تتراوح بين هاذين القطبين كذلك أجسادنا تتراوح بين شباب وشيب. وتعود الأنثى لاستنكارها، فتتساءل عن سبب شحوبه، وكأنها تعقد مقارنة بين الماضي حيث الشباب والنضارة والطيش، والحاضر الذي ليس فيه إلا الشحوب والهزال، وتحمّل كلماتها نغمات السخرية والاستهزاء، فهي تشير إلى الطبيب الذي منعه من الخمرة، بما تحمل تلك الإشارة من أمراض كثيرة لحقت به. لكن الشاعر يعرض عن تلميحها، ويستثمر التمثيل الحسي ليُؤكّد أنّ استسلامه للدهر لم يأتِ من ضعف وخنوع، بل من حكمة وقوة، فإنّ يد الدهر تطال حتى الصمّ الصلاب، مؤكداً قوته وصلابته. فالمنايا تصيب الجميع، وقد أصابت أخاه، فحزن الشاعر وتألم، وقد استجاب جسده للحزن العميق المصاحب لفقد أخيه، فازدادت ملامح الشيب عليه، في حين بقيت روحه قوية صلبة من الداخل.

[1]) القرشي: جمهرة أشعار العرب، المصدر السابق، ص 701– 702.

ب- شعراء الإسلام:

لعلَّ انغماس الجاهلي أيام شبابه في اللهو وحب الملذات، ثم عزوفه عن مظاهرها في المشيب، ما هو إلا اضطراب وقلق عاشه إزاء الوجود، وفوضى في مفهوم القيم التي تحدد علاقته بالكون والموجودات، وغموض لا يجد له تفسيراً عن جدوى قدوم المشيب بعد الشباب والموت بعد الحياة، بخلاف الوضوح لدى المسلم الذي تمكّنه عقيدته من تفسير وجوده، وفهم العالم من حوله، وتجنّبه القلق وهو يحاول التفسير أو يمارس التغيير[1]، فالشاعر الجاهلي يقف متأملاً متعظاً بعد انقضاء شبابه وحلول مشيبه، أمّا الشاعر المسلم فإن هداية الله تسبق إليه قبل ظهور هذا النذير (الشيب). ففي ملحمة الطِّرِمّاح بن حكيم[2] تتبدل المعايير في ثنائية (الشباب والمشيب)، فلم يعد يرى الشيب رمزاً للفناء، والشباب رمزاً للعطاء وحسب، بل نراه متصالحاً مع المشيب؛ إذ يقول:

قَـلَّ في شَطِّ نَهْرَوانَ اغْتِمَاضِي ورَمَانِي هَـوى العُيُونِ المِراضِ[3]
فَتَطَـرَّبْتُ للصِّبا ، ثُـمَّ أَوْقَفْـ ـتُ رِضاً بالتُّقى، وذُو البَـرِّ رَاضِ
وأَرَانِي المَلِيْكُ رُشدِي وقَدْ كُنْـ ـتُ أَخـا غُنْجُهِيَّةٍ واعتِـرَاضِ
غَيْـرَ مـا رِيْبَـةٍ سِوى رَيِّقِ الغِـرَّ ةِ ، ثُمَّ ارعَـوَيْتُ عِنْـدَ البَيَـاضِ[4]
وأَهَلْتُ الصِّبا ، وأَرْشَدَنِي اللـ ـهُ بِـدَهـرٍ ، ذِي مِرَّةٍ وانتِقَاضِ[5]

يقدم الشاعر ثنائية (الشباب والشيب) ويربطها بثنائية (الغواية والرشاد)، ويؤطّر لها زمنين: هما الماضي والحاضر، ففي الماضي عاش الشاعر الصبا

[1]) ينظر الخليل، أحمد: 1989م، ظاهرة القلق في الشعر الجاهلي، دار طلاس، دمشق، ط1، ص346.

[2]) وهو من فحول الشعراء الإسلاميين وفصحائهم، ومولده ومنشؤه بالشام، وانتقل إلى الكوفة مع جيوش أهل الشام، واعتقد مذهب الشُّراة الأزارقة من الخوارج. راجع البغدادي: خزانة الأدب ولبُّ لباب لسان العرب، تح عبد السلام هارون، ج8، مكتبة الخانجي، القاهرة،، ص 74.

[3]) نهروان: نهر في العراق قريب من الكوفة.

[4]) غير ما ريبة: أي من غير ريبة. الغرّة: الغفلة. ارعويت: انكففت. البياض: المشيب.

[5] أهَلْتُ الصبا: تركته. مِرة وانتقاض: أراد بدهر يصلح ويفسد. القرشي: جمهرة أشعار العرب، المصدر السابق، ص 995، 996.

واستمتع به وطرب له، واستعرض ما كان فيه من تكبر وعنجهية، ثم جاء زمن الحاضر يصحبه الرشد والهدى، ويأتي توظيف الشاعر أسلوب التكرار في هاتين الثنائيتين بقوله: (تطرّبت للصبا، أهلتُ الصبا) (رضاً بالتّقى، ذو البّر راضٍ)(أراني المليك رشدي، أرشدني الله، ارعويت) لتأكيد أنَّ الله تعالى فتح بصيرته وأنار قلبه، فهو الدافع إلى هدايته، فلما جاءه الشيب كان في فضاء التقى والرشد والسكينة، وهنا تظهر لنا ثنائية أصغر (الرضا، الاعتراض)، فالرضا جاءه بعد أن عرف ربه وأدرك حكمة الإله في كل شيء، فرضي وسلّم حتى للشيب، أما الاعتراض فكان في الماضي رديفاً للصبا وزمن الجاهلية.

ووظَّف الشاعر عمرو بن أحمر [1] ثنائية (الشباب والمشيب) ليحظى بفاعليتها، وينال عبر دلالاتها ضالته عند الخليفة عبد الملك بن مروان؛ إذ استهلَّ قصيدته بقوله:

بَانَ الشَّبَابُ وأَفْنَى ضِعْفَكَ العُمُرُ ... للهِ دَرُّكَ ، أيَّ العَيْشِ تَنْتَظِرُ؟
هَلْ أَنْتَ طَالبٌ شيءٍ لستَ مُدْرِكَهُ؟ ... أَمْ هَل لِقَلْبِكَ عن أُلافِه وَطَرُ؟
أم كنتَ تَعرِفُ آيَاتٍ فَقَدْ جَعَلَتْ ... آياتُ إلفِكَ بالوَدْكَاءِ تَدَّثِرُ[2]؟
أم لا تَزالُ تُرَجّي عِيْشَةً أُنُفاً ... لَمْ تُرجَ قَطُّ ولَمْ تُكْتَبْ بِهَا زُبُرُ؟
يَلْحَى على ذاكَ أَصحَابي، فقلتُ لَهُمْ: ... ذَاكُمْ زَمانٌ ، وهذا بَعْدَهُ عُصُرُ
هَلْ فِي الثَّمَانِي مِنَ التِّسْعِينَ مَظْلِمَةٌ ... وَرَبُّهَا لِكِتَابِ اللَّهِ مُسْتَطِرُ؟[3]

إنَّ التنوع الدلالي من أدوات الثنائية الضدية، فهو يغني الفضاء اللغوي في النص، ويأخذ منحى العدول والانزياح في "خلق نوع من المفاجأة أو الغرابة أو كسر

---

[1]) وهو من الشعراء المخضرمين الذين عاشوا في الجاهلية وامتدّ بهم العمر حتى أدركوا الإسلام وحسن إسلامه، وانضم إلى جيش الفتوحات الإسلامية، وقد اتصل بالخلفاء الراشدين والأمويين وولاتهم ومدحهم. راجع الأصفهاني(-356هـ): 1935م، الأغاني، ج8، دار الكتب المصرية، القاهرة، ص234.

[2]) الودكاء: ماء في بلاد بني قريظ.

[3]) المظلمة: ما تطلبه عند الظالم. ربها،: صاحبها. مستطر: كاتب. أي هل من سامع مظلمة رجل طعن في السن، تقي حافظ لكتاب الله، خاضع لحكمه لا يقول إلا الحق، والأبيات التالية تعزز هذا المعنى، إذ راح يعدد فيها ظلم السعاة للناس في جباية الأموال. القرشي: المصدر السابق، ص 842- 850.

العادة بأن يأتي الشاعر بحركة مغايرة ينتقل فيها من موقف إلى موقف آخر مضاد، مما يخلق نوعاً من التوتر والنشاط، فتنبثق عن ذلك دلالات واسعة، ويفتح آفاق الإيحاء والخيال."[1] وقد تنوعت دلالة ثنائية (الشباب والمشيب) في النص إلى ثنائيات القوة والضعف، والحضور والغياب، والرفق والقسوة، والإنصاف والظلم، التي تجسّدت ضمن مستويين: الأول: يشير من خلاله الشاعر إلى ضعفه وكهولته، ما يجعله جديراً برحمة الخليفة ورأفته، فقد جرَّد من نفسه شخصاً توجَّه إليه باللوم والعتاب عارضاً أمامه صورة الشباب الراحل، والشيب المقيم بما فيه من معاني الضعف وقرب الأجل، كأنه يلوم نفسه على ما هي عليه من عدم الاعتبار والاتعاظ، وعدم انتهاء مطالبها التي يستحيل إدراكها.

وأما الثاني: فيقابل الشاعر ضعف العامة وعجزهم أمام جباة الأموال بالقدرة والقوة التي يمثلها الخليفة العادل الذي سيقف في وجه هؤلاء، ولأن الشيخوخة تبعث على الحزن، والشعور بالقلق والمعاناة، فقد أراد الشاعر استحضار هذه الأجواء في مجلس الخليفة ليبعث في نفسه العظة والعبرة في تبدل الأحوال، فمصير الشباب هو المشيب، إذ يقول: (ذاكم زمانٌ وهذا بعده عصرُ) ليحث الخليفة على الورع والزهد، وإقامة العدل، ولا سيّما أنَّ ردع ظلم السعاة عن كواهل النّاس الغرض الأساسي في القصيدة.

ويضعنا النمر بن تولب[2] أمام ثنائية تتجلى ضمن نسيج لغوي فكري قائم على طرفين متضادين؛ أحدهما فاعل وبارز حاضر، وهو الشيب وما جرَّ معه من آفات، والآخر غائب ومضمر ماض، وهو الشباب، وكأن الإنسان ما إن يهرم وتسقط أوراقه الزمان حتى تذهب معها حقوقه ويضيع حضوره، ويصبح مفرداً ومهمشاً، إذ يقول:

[1]) حمدان، ابتسام أحمد: 1997م، الأسس الجمالية للإيقاع البلاغي في العصر العباسي، دار القلم العربي، حلب– سوريا، ط1، ص147.

[2]) وهو شاعر الرِّباب في الجاهلية، وفد على النبيﷺ وهو كبير، فأسلم وحسن إسلامه، وعُدَّ من الصحابة. راجع البغدادي، خزانة الأدب ولبُّ لباب لسان العرب، ج1، تح عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ص 321.

لعمري لَقَدْ أَنكَرتُ نَفسِي ورَابَني مَعَ الشَّيبِ أَبدَالي التي أَتَبَدَّلُ
فُضولٌ آراها في أَدِيمِيَ بَعدَما يَكونُ كَفَافَ اللَّحْمِ، أو هو أَفضَلُ[1]
كَأَنَّ مِحَطّاً في يَدَيْ حَارِثِيَةٍ صَناعٍ عَلَتْ منّي، بهِ الجِلْدَ تَصْقُلُ[2]
وقَوْلِي: إذا ما اطْلُقُوا عَنْ بَعِيرِهِمْ تُلاقُونَه حَتّى يَؤُوبَ المُنَخَّلُ3
فَيَضْحَى قَرِيباً غَيْرَ ذَاهِبِ غُرْبَةٍ وأَحْنُثُ أَيْمَاني ولا أَتَحَلَّلُ4

تؤدي ثنائية التضاد دورها في إغناء النص بالدلالات اللغوية المتعددة، فقد حملت ثنائية (الشباب والمشيب) في النص مسألة التحول والتبدل بين حالين مختلفين من القوة إلى الضعف، ومن الحاضر إلى الماضي، ومن الصحة إلى المرض، ومن المجد إلى العزلة. ويستهل الشاعر مقطوعته بالقسم ليؤكد أنّ الشيب قد أحدث تغييراً جذرياً في حاله، لدرجة أنه أنكر نفسه، وداخلته الريبة فيما يراه من جسده، لكأنه أمام شخص آخر، وبدأ يصف آثار الشيب الغريبة عليه مقارناً بينها وبين جمال الشباب وقوته، وقدّم صورة جسده الضعيف، وقد اعتراه الجفاف والانقباض بعدما كان يانعاً ومكتنزاً باللحم، وجاء بصورة تشبيهية تصف هيئته الجديدة، وهي صورة لامرأة حارثية من أهل نجران تصقل الجلد، بأداة تؤدي إلى توسع حجم الجلد ورقته، وهذا ما يحصل لجلد الإنسان عندما يتقدم بالعمر، فإنّ جلده تزداد مساحته مما يؤدي إلى ترهله ورقّته. أما التغيير الآخر فهو ضعف رأيه واختلال عقله، في حين كان بالماضي خلاف ذلك، ثم يعمد إلى استحضار أيام الصبا والقوة، وكأنّه يقدّم للمخاطب تجربته لتكون درساً وموعظة وعدم ضياع الوقت فيما لا طائل منه، فيقول:

بَطِيءٌ على الدَّاعي، فَلَسْتُ بِآخِذٍ إِلَيْهِ سِلاحي مِثْلَ ما كُنْتُ أَفْعَلُ
دَعَاني الغَوَاني عَمَّهُنَّ وخِلْتُني لِي اسمٌ، فَلا أُدعَى بِه، وهُو أَوَّلُ

---

[1]) الفضول: التغضن في الجلد.

[2]) المحط: الحديدة التي تكون مع الخزَّارين ينقشون بها الأديم، وأراد بالحارثية النسبة إلى بني الحارث بن كعب، لأنهم أهل أدم. الصناع: المرأة الحاذقة تعمل الشيء.

[3]) المنخل: هو القارظ العنزي يضرب به المثل فيما لا يرجى إيابه.

[4]) فيضحى: أي البعير. أحنث أيماني: أي أحنث في أيماني. القرشي: جمهرة أشعار العرب، المصدر السابق، ص 549–550.

وقد كُنتُ لا تُشْوي سِهامي رَمِيَّةً فقد جَعَلت تُشوِي سهامي وتنْصُلُ
تـدارَكَ ما قَبلَ الشَّبـابِ وبَعـدَهُ حـوادِثُ أيَّـامٍ تمـرُّ وأغْفُـلُ
يُوَدُّ الفتى بعد اعتدالٍ وصحَّةٍ ينـوءُ إذا رامَ القيـامَ ، ويُحمَلُ[1]

يبكي الشاعر حسرة وألماً على انقضاء أيام الشباب، وتظهر عليه أمارات الكآبة والجزع، وقد أصبح عبئاً ثقيلاً على نفسه وعلى من حوله، وهنا نراه يغوص في ثنائية التحول والثبات، والحضور والغياب، فالكهولة صرفت عنه النساء بفقده الفتوة والقوة، فإن لقب (العم) قد أنساهن الاسم الأول (النمر) بما فيه من دلالة القوة والاندفاع، ومن أشد ما جرّ على نفسه الخيبة والأسى هو إعراض امرأته عنه، يقول:

وظَلْعِي ولَم أُكسَر ، وأنَّ ظَعِينَتي تَلُفُّ بَنِيَّها في الدِّثَـار وأُعـزِلُ
وكُنْتُ صَفِيَّ النَّفْسِ لا أَسْتَزِيْدُها فقد كِدتُ مِنْ إقصَاءِ جَنْبِي أُذْهَلُ[2]

يعمد الشاعر إلى معاتبة زوجه فيما كانت عليه في الماضي، وما آلت إليه في الحاضر، ما جعله يشعر بالذهول والأسى؛ إذ إنّ أكثر ما يحتاجه الإنسان في هذه المرحلة هو الاهتمام والدعم النفسي، ومنحه القوة في لحظات ضعفه، والحنان عند خوفه، وتعزيز وجوده عندما يحسّ بفنائه، وأنّ حشد الشاعر المحسوسات والتصورات الذهنية من خلال صورة حارثية نجران، والقارظ العنزي، والتقاعس عن السيف ونفور الغواني والظعينة وسيلة إلى تنشيط الحواس وتعزيز اتحاد الفكرة أو الشعور بالصورة، فإن الشعور يظل مبهماً في نفس الشاعر ولا يتضح له إلا بعد أن يتشكل في صورة.[3]

ثانياً: ثنائية الحياة والموت:

إنَّ الموت قدر الحياة المحتوم، وكل عيش لا بدّ إلى زوال، وقد عبر شعراء الجمهرة عن ثنائية (الحياة والموت)، والعلاقة الجدلية بين قطبيها، وأثرها في نفوسهم، بأسلوب إبداعي قدّم قيماً موضوعية وفنية، فظهرت دلالات متعددة ومفاهيم مختلفة

[1]) القرشي:جمهرة أشعار العرب المصدر السابق، ص 551– 552.

[2]) الظلع: هو العاهة في المشي. ظعينتي: يقصد امرأته التي تدني منها بنيها وتبعده. القرشي: ص 550–551.

[3]) ينظر اسماعيل، عز الدين: التفسير النفسي للأدب، مكتبة غريب، القاهرة، ط4، ص 62 وما بعدها.

باختلاف فكرهم وفلسفتهم؛ فطبيعة الحياة العربية ومظاهرها المختلفة كونت رصيداً فكرياً لدى العربي في نظرته إلى الحياة والموت، ومصير الإنسان، والخير والشر، ومعاتبة الدهر.

أ- شعراء الجاهلية:

أحسّ الشعراء الجاهليون إحساساً قوياً بالموت، وأدركوا حتميته، وقد تجلت في ثنائية (الحياة والموت) لدى طرفة بن العبد[1] قيماً تكشف عن رؤى وجودية وأفكار جدلية، يقول:

أَلا أيُّهَذَا اللَّائِمِي أَحْضُرُ الـوَغَى وأَنْ أَحْضُرَ اللّذاتِ هَلْ أَنتَ مُخْلِدِي؟
فَإنْ كُنْتَ لا تَسطِيْعُ دَفْعَ مَنِيَّتِي فَـذَرْنِي أُبَادِرهَا بِمَا مَلَكَتْ يَـدي
فلولا ثَلاثٌ هُنَّ مِن عِيشَةِ الفَتَى وجَـدِّكَ لَمْ أَحْفِل مَتى قَـامَ عُـوَّدي
فَمِنهُنَّ سَبْقُ العَاذِلاتِ بِشُربَـةٍ كُمَيْتٍ مَتَى مَا تَعلَ بالمَاءِ تَـزبَدِ
وتَقْصِيْرُ يَـومِ الدَّجْنِ والدَّجْنُ مُعْجَبٌ بَـهْنَكَـةٍ تَحْتَ الخِبَـاءِ المُمَـدَّدِ
وَكَـرِّي إذا نَـادَى المُضَافُ مُحَنَّباً كَسِيدِ الغَضَا فـي الطِّخْيَةِ المُتَوَرِّدِ
لَعَمْرُكَ مَا أَدْرِي وإنّي لأَوْجَلُ أَفي اليَـومِ إقـدَامُ المَنِيَّةِ أو غَـدِ[2]

يقدم طرفة فلسفة (الحياة والموت) وفق منظوره، ويقدمه من خلال رده القوي على لائمه، الذي يلومه على أفعاله التي تتسم بالمجازفة والتهور، من خوض المعارك، وبذل المال، والاستمتاع بملذات الحياة، ويأتي رده مسلمة ثابتة يؤمن بها، وهي لا خلود في الحياة، ويقدمها بأسلوب استفهامي انزاح إلى الاستنكار (هل أنت مخلدي؟)، ليمنح نفسه الثقة والأمان فيما يقوم به، ويُسكت صوت لائمه، فإن كان لا يستطيع دفع المنية عنه؛ فليدعه يأخذ من الحياة ما استطابت نفسه، فهو سبيله للخلاص من هاجس الموت والشعور بالفناء والتلاشي. وبذلك حاول طرفة جاهداً

[1]) ولد طرفة في البحرين في بيت عريق الأصل، ونشأ يتيم الوالد ينفق بغير حساب، فضيّق عليه أعمامه، ورفضوا أن يعطوه حقه، وجاروا على أمّه، وكان ينادم الملك عمرو بن هند، وقُتل على يد عامله الربيع في البحرين وهو ابن عشرين. راجع البغدادي: خزانة الأدب، ج2، المصدر السابق، ص 419 وما بعدها.

[2]) القرشي: جمهرة أشعار العرب، المصدر السابق، ص 438- 453.

تغليب قطب الحياة على قطب الموت مؤمناً بإمكاناته ووجوده في اللحظة الحاضرة، واستحوذت ثنائية (الحياة والموت) على تفكيره؛ فيقف أمامها باحثاً عن سر الوجود، فلا يروي ظمأ جهله قطرة معرفة، وجلّ ما وصل إليه أنّ الموت حقيقة مطلقة لا مفر منها، والحياة كنز ينقص كل ليلة، وعلى الإنسان أن يأخذ ما استطاع من هذا الكنز قبل نفاده، وهذا ما يفسّر حرصه على الاغتراف من ملذات الحياة قبل أن يدركه الموت المطلق. ونسمعه يقدّم خبرته، وتأمله في العالم من حوله قائلاً:

أَرَى قَبْـرَ نَحَّـامٍ ، بَخِيْـلٍ بِمالِـه كَقَبْرِ غَـوِيٍّ في البَطَالَـةِ مُفْسِدِ
أَرَى المَوتَ يعتامُ الكَرامَ ويَصْطَفِي عَقِيْلَـةَ مَالِ الفَاحِشِ المتشدِّدِ
أَرَى العُمْرَ كَنْـزَاً نَاقِصَاً كُلَّ لَيْلَةٍ ومَا تَنْقُصُ الأَيَّـامُ ، والدَّهْـرُ يَنْفَدِ
أَرَى المَوْتَ لا يُرْعِي عَلى ذِيْ جَلَالَةٍ وإِنْ كَـانَ في الدُّنيَا عَـزِيْـزاً بِمَقْعَدِ[1]

يقدم الشاعر صورة يائسة تجاه حتمية الموت باستحضار ثنائية (كريم– بخيل) (الكرام– الفاحش المتشدّد)، فإنّ معيار البخل عند طرفة متعلق بحرمان المرء نفسه من ملذات الحياة، وكريم النفس من يشبعها، ومن ضنَّ بماله عند اللذّات تساوى مع من أنفقه، والموت لا يراعي أصحاب العزّة والمقامات، ويحصد كريمة مال الحريص، كما يحصد الغوي على السواء، وهذا التساوي في المصير هو المشكلة الوجودية التي يعاني منها طرفة، والتي تشعره بالخيبة، واليأس، وافتقاد حكمة الثواب والعقاب بعد الموت، لذلك نراه يعيش في قلق وجودي يحاصره الشك والحيرة والجهل، مما أدخله في صراع مع الموت، ودفعه إلى التزوّد من متع الحياة قبل أن يدركه الفناء الأبدي[2]؛ إذ يقول:

وما هَـذِهِ الأَيَّــامُ إلا مُعَـارةٌ فما اسطَعتَ مِنْ مَعْرُوفِهَا فَتزوَّدِ[3]

---

[1]) المصدر السابق، ص441–452.

[2]) راجع الخشروم، عبد الرزاق: 1982م، الغربة في الشعر الجاهلي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق–سوريا، ص 298.

[3]) القرشي: جمهرة أشعار العرب، المصدر السابق، ص 453.

بذلك نجد أن الجاهليين قد "خضعوا للمؤثرات المادية لبيئتهم القاسية دون أن يكون لديهم إيمان رفيع يملأ فراغهم الروحي، ويطهر أخلاقهم، ويصحّح سلوكهم الذي لم يكن صادراً عن أسباب مادية فحسب، بل كان صادراً عن افتقارهم إلى إيمان قوي يفسّر لهم تناقض الحياة"[1].

وتأخذ ثنائية (الحياة والموت) في منتقاة عروة بن الورد[2] بعداً مختلفاً تبعاً لغايته الإنسانية، وروحه المتمردة؛ إذ يدخل مع صعاليكه في صراع مرير مع الحياة، ولا يخشى الموت ما دام في سبيل غايته بتقديم أسباب الحياة للضعفاء والمساكين، وفي ذلك يقول:

فَإنْ فَازَ سَهمِي للمنيَّةِ لَم أكُنْ جَزُوعَاً وهَلْ عَنْ ذَاكَ مِنْ مُتأخِّرِ[3]

يعاني الشاعر من الإحساس بالضياع والنفي في هذا الكون، فيعلن غربته وضياعه في مجتمعه، ويعاهد النفس على التضحية في سبيل فلسفته، ولا يهاب الموت دونها، ما دام هذا هو مصير الإنسان المحتوم؛ إذ يقول:

فَذَلِكَ إنْ يَلقَ المَنِيَّةَ يَلقَهَا حَمِيْدَاً، وإنْ يَسْتَغْنِ يَوْمَاً فَأَجْدَرِ[4]

تضافر طرفا الثنائية في فكر عروة، بل كادا أن يتساويا لديه؛ إذ إن فضاء القلق والضياع الذي يعيش فيه عروة يدفعه إلى الإحساس بالفناء والتلاشي، فتغدو الحياة لديه كما الموت، بما أنّه يفتقد العدل والمساواة والحق في مجتمعه، ليبقى الأمل مرهوناً باستمرار ثورته على النظام الاقتصادي في مجتمعه، فإما أن يعيش عزيزاً كريماً، وإما أن يموت حميداً.

---

[1]) النويهي، محمد: الشعر الجاهلي، ج1، الدار القومية، القاهرة – مصر، ص 405–406.

[2]) شاعر من شعراء الجاهلية، وكان يدعى (عروة الصعاليك) لأنه كان يجمع صعاليك العرب، ويقوم بأمرهم، ويرعى أحوالهم، وفي هذه القصيدة كانت امرأته سلمى وهي ابنة منذر، تلومه على المخاطرة بنفسه، وإدمانه الغزوات والغارات في أحياء العرب. راجع الأصفهاني: 1935م، الأغاني، ج2، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط1، ص 184.

[3]) القرشي: جمهرة أشعار العرب، المصدر السابق، ص 580.

[4]) القرشي: جمهرة أشعار العرب المصدر السابق، ص 583.

وثمة شعراء من ذوي العقل والنباهة أدركوا قيمة الوجود ومنتهاه، كالذي نراه في معلقة زهير بن أبي سلمى، وقد تجلت ثنائية (الحياة والموت) وفق منظور مختلف لا يرى أنَّ الموت هو نهاية كل شيء، بل هو معبر للحياة الآخرة التي يلقى فيها كل إنسان جزاء عمله في الحياة الدنيا؛ إذ يقول:

فلا تكْتُمَنَّ اللهَ مَا في نُفوسِكُم لِيَخْفَى، وَمَهْمَا يُكْتَمِ اللّهُ يَعلَمِ

يُؤَجَّلْ، فَيُوضَعْ في كِتابٍ فَيُدَّخَرْ لِيَوْمِ الحِسابِ، أو يُعَجَّلْ فَيُنْقَمِ[1]

تظهر الأفعال المضارعة في الثنائيات (يخفى، يعلم) (يؤجل فيدَّخر، يعجّل فينقم) أبعاداً دلالية تتوجه بالفكر والعاطفة نحو تأكيد المعنى واستمراريته إلى يوم البعث، كما تكشف هذه الثنائيات المتقابلة عن ملامح شخصية الشاعر وفطرته الواضحة التي لا يشوبها غموض أو تعقيد، فالله عالم بالغيب، ومطلع على الضمائر، ويجزي كل نفس بما عملت، فيؤخر ليوم الحساب، أو يعجّل عقوبته في الحياة الدنيا، وتومئ إلى توجّه الشاعر عبر هذه الحقائق إلى دعاة الحرب، وكل من تسول له نفسه إشعال فتيلها، فيرهبهم، ويعظ نفوسهم خوفاً من الله وحسابه، ولا سيَّما أنَّه عاش أحداث حرب داحس والغبراء، ورأى ما خلفه أصحابها من عذاب وفقر وهلاك.

إنّ اليقين الديني الذي تمثل في قول زهير، وأظهر إيمانه بالبعث والجزاء، لم ينجح في أن يخفف من حزنه وتشاؤمه حين تأمّل اضطراب الحياة الجاهلية، وظلمها[2]؛ إذ يقول:

سَئِمْتُ تَكَالِيفَ الحَيَاةِ ، وَمَنْ يَعِشْ ثَمَانِيْنَ حَـوْلاً ، لا أَبَـالَـكَ يَسْـأَمِ[3]

رأيتُ المَنَايَا خَبْطَ عَشْوَاءَ، مَنْ تُصِبْ تُمِتهُ ومَنْ تُخْطِئ يُعَمَّرْ فَيَهرِمِ

وأعلمُ مَا فِي اليَوم والأمسِ قَبْلَهُ ولكنَّني عَن عِلمِ مَا في غَدٍ عَمِ

ومَنْ هَـابَ أَسبَابَ المَنَايَا يَنَلنَهُ ولـو نَـالَ أَسبَابَ السَّماءِ بِسُلَّمِ[4]

---

[1]) القرشي: جمهرة أشعار العرب المصدر السابق، ص 289.

[2]) النويهي، محمد: الشعر الجاهلي، ج1، المرجع السابق، ص 422.

[3]) لا أبالك: كلمة تستعملها العرب في تضاعيف كلامها عند الجفاء والشدة والذم.

[4]) القرشي: جمهرة أشعار العرب، المصدر السابق، ص 296 –297.

يأتي الشاعر بالمفارقات اللغوية (الحياة، المنايا) (اليوم، الأمس، قبله، غد) (تصب، تخطئ) ليعبر عن التضاد الذي يعيش الإنسان رهيناً بين ثناياه، من قوة وضعف، وصلاح وفساد، وماضٍ وحاضر، إلى قسوة ظروف الحياة، ووطأة الموت الذي تحيط به من كل جانب بحرب أو فقر أو هرم. فيقف الشاعر أمام حتمية الموت بنظرة يشوبها الزهد والسأم من الحياة، ويصف الموت بخبط عشواء، وهو الخبط غير المستهدف، يصيب من يقع في مرمى سهامه. ويرى أنّه قد ضلّ عنه، فعمَّر طويلاً، ونال منه الضعف والهرم مبلغاً كبيراً. وأيّاً يكن فإنَّنا لا نصل إلى أواخر العصر الجاهلي حتى نجد استعداداً لفكرة الإله الواحد التي أدّت إلى انحلال الوثنية، ومهّدت لقدوم الإسلام[1]، ومما ليس خافياً أنَّ زهيراً قد عمّر طويلاً، وأدرك أواخر أيام الجاهلية قبيل الإسلام، وكان خير ممثل عن هذا الاستعداد.

ب- **شعراء الإسلام:**

إن الإسلام وإن ذكر حتمية الموت، فقد جاء بالإيمان الذي يجعل الناس يتصالحون مع الموت، حين يعتبرون به، ويكون وازعاً خفياً للعمل الصالح، ما يمنحهم العقيدة الثابتة التي تشجعهم على لقائه.[2] وقد تجلى هذا الإيمان واضحاً لدى شعراء الإسلام؛ إذ يقف أبو ذؤيب الهذلي[3] في مرثيته أمام فجيعة الموت وجهاً لوجه بفقد أبنائه الخمسة في عام واحد، وقد فاضت بمشاعر الحزن والألم، وفي ذلك يقول:

أَمِنَ المَنُـونِ وَرَيْبِها تَتَوَجَّـعُ والدَّهْرُ ليسَ بِمُعْتِبٍ مَن يَجْزَعُ؟[4]
قالت أُمَيْمَةُ ما لِجِسْمِكَ شاحِباً منذُ ابْتَذَلْتَ وَمِثْلُ مَالِكَ يَنْفَعُ؟
أم ما لِجَنْبِكَ لا يُلائِمُ مضْجَعَاً إلَّا أَقَضَّ عليكَ ذَاكَ المَضْجَـعُ
أَودى بَنِيَّ فَأعقَبُـوني حَسْرَةً بَعْـدَ الـرُّقَادِ ، وَعَبْرَةً ما تَقْلَعُ

---

[1]) الخشروم، عبد الرزاق: الغربة في الشعر الجاهلي، المرجع السابق، ص 309.

[2]) ينظر النويهي، محمد: الشعر الجاهلي، ج1، المرجع السابق، ص 408.

[3]) وهو شاعر فحل مخضرم، أدرك الجاهلية والإسلام، وهو أشعر شعراء هذيل من غير مدافعة. وفد على النبي ﷺ في مرض موته، فأدركه وهو مسجى، وصلى عليه وشهد دفنه. البغدادي: خزانة الأدب، ج1، المصدر السابق، ص423.

[4]) ريب المنون: حوادث الدهر. ليس بمعتب: أي ليس بمرضٍ

فَغَبَرتُ بَعْدَهُم بِعَيْشٍ نَاصِبٍ وأَخَـالُ أَنّـي لاحِـقٌ مُستَتْبَعُ[1]

تتجلى ثنائية (الحياة والموت) في سياق لغوي يطغى فيه الطرف الثاني على الأول، وتهيمن مفرداته على النص، فقد جسّد فقد الأبناء، وهم أحب الناس إلى قلب الشاعر هذا القطب، بينما يقف الشاعر في المقابل على عتبات قطب الحياة يعاني أصنافاً من العذاب والألم، ما جعله يزهد بالحياة، ويحث المنية على موافاة روحه بعيداً عن دنيا لن يرى فيها أولاده.

ويتأرجح شعور أبي ذؤيب بين طرفي ثنائية (الندب والعزاء)، ويقوم على المقابلة والتوازي بينهما، من خلال جعل العزاء في الحضور والإثبات، ونفي الندب، ويبدأ قصيدته بالتماسك والصبر أمام صروف الدهر، فهو مسلم يؤمن بقضاء الله وقدره (أمن المنون وريبها تتوجّعُ؟ الدهر ليس بمعتب من يجزع، ومثل مالك ينفع)، إلا أنّ حضور الندب في اللاوعي، يجعله يستسلم أمام نفيه (تتوجّع، ما لجسمك شاحباً، ما لجنبك لا يلائم مضجعاً، فأعقبوني حسرة، عيش ناصب)، ولا غرابة في ذلك، فالموت أصاب أحبَّ الناس إلى قلبه.

ويقدم علقمة ذو جدن الحميري[2] رثاء مختلفاً، يواجه فيه حقيقة الموت، ويقف أمامه موقف المفكر المتأمل قائلاً:

لِكُلِّ جَنبٍ ما احتَنى مُضطَجَعْ والمَوتُ لا يَنفَعُ مِنهُ الجَزَعْ
والموتُ ما ليس لـهُ دافِـعٌ إذا حميمٌ عن حميمٍ دَفَـعْ
لـو كـان حـيٌّ مفلتاً حيْنُهُ أفْلَتَ منه في الجبال الصَّدعْ
أو ملكُ الأقـوالِ ذو فائشٍ كان مهيباً حائـزاً ما صَنَعْ
أو تُبَّـعٌ أُسعِدَ فـي مُلكـهِ لا يَتبَعُ العالمَ بل يُتَّبَـعْ
اليـوم يجـزون بأعمالهم كـلُّ امرئٍ يحصدُ ما قـد زرع

[1]) القرشي: جمهرة أشعار العرب، المصدر السابق، ص683– 684.

[2]) هو علقمة بن شراحيل بن ذي جدن، كان ملكاً بالبون . مدينة باليمن، وقصيدته في رثاء ملوك حمير وعدَّ أسماء من كان منهم، وذكر صفاتهم وبأسهم وأيامهم ومناقبهم، وبكى ممالكهم وقد أفل نجمهم، وأزال الموت سيادتهم، وفي مرثيته كثير من الحكم. القرشي: جمهرة أشعار العرب المصدر السابق، ص 725.

صاروا إلى الله بأعمالهم يجـزي الـذي خـان ومن اتَّزع[1]

تشكل ثنائية (الحياة والموت) محور القصيدة وجوهرها، ويسعى من خلالها الشاعر إلى توازي الطرفين على تضادهما، ليلقي كل طرف بظلاله على الآخر، فيُبرز ملامحه ويزيده وضوحاً، إذ يؤكد الشاعر حقيقتين؛ الأولى: أنّ الحياة قصيرة، وعلى الإنسان اغتنامها في العمل الصالح، فالموت حق لابدّ منه، لتحصد كل نفس ما زرعت، والثانية: مهما اختلفت طبقات الناس، وتفاوتت مراتبهم في الحياة، فإنَّهم عند الموت سواسية، وهذا الفكر ألحده الجاهليون، والتزم بها الإسلاميون.

وإنّ رثاء علقمة هو رثاء ملك للملوك، واتعاظ ملك من مصير من سبقوه، وتأكيده حتمية الموت واستحالة الخلود، وقد اتسمت مفرداته بالبساطة والوضوح، وحملت في مضامينها معتقد توحيد الله عز وجل، وهذا ما يشير إلى إيمان الشاعر بالبعث والجزاء بعد الموت، ولا ندري إن كان من الموحدين قبل الإسلام أم بعده، فالمصادر شحيحة في نسب هذا الشاعر، وقد تفرّد القرشي في رواية هذه القصيدة.

ويقدم مالك بن الريب[2] عالماً يضج بثنائية (الحياة والموت)؛ ففي مرثيته يقول:

لَعَمْرِي لَئِن غَالَتْ خُرَاسَانُ هَامَتِي لَقَدْ كُنتُ عَن بَابَيْ خُراسَان نَائِيَا[3]

فَلِلَّهِ دَرّي يَـومَ أَتــرَكُ طـائِعـاً بَنِـيَّ بِأَعْلَـى الـرُّقْمَتَيْنِ ، ومَالِيـا

تَذَكَّرتُ مَـنْ يَبكِـي عَلـيَّ، فَلَـمْ أَجِـد سِوى السَّيفِ والرُّمحِ الرُّدَينِـيِّ بَاكِيـا

---

[1]) القرشي: جمهرة أشعار العرب المصدر السابق، 725-726.

[2]) نشأ مالك في بادية بني تميم مع بداية العهد الأموي، وكان صعلوكاً فاتكاً شجاعاً يعيش حياة قطاع الطرق، وقد سام الناس شراً مع أصحابه حتى طلبهم مروان بن الحكم عامل معاوية على المدينة، وقد استطاع الهرب إلى فارس، ودعاه سعيد بن عثمان، إلى صحبته إلى خراسان ملبياً حاجته من المال. راجع البغدادي(-1093هـ): خزانة الأدب، ج2، المصدر السابق، ص 210-211.

[3]) غالت أهلكت. هامتي والهامة: الرأس.

و يَا صَاحِبَيْ رَحْلي دَنَا المُوتُ فانْزِلا بِـرَابِيَـةٍ إنّـي مُقِيْـمٌ لَيَالِيـا
غَدَاةَ غَدٍ ، يا لَهْفَ نفسي عَلى غَدٍ إذا أَدْلَجُـوا عِنّي ، وأَصْبَحتُ ثَاوِيَـا
وأَصْبَح مَالِيَ مِنْ طَرِيفٍ وتَـالِـدٍ لِغَيري، وكَـان المالُ بالأمسِ مَالِيْـا[1]

تتنوع دلالة ثنائية (الحياة والموت) وتتجلى من خلالها ثنائية (التحول والثبات)، فإن تحول مالك من حياة الصعلكة إلى الجندية في صفوف جيش ابن عفان لم تتلاءم مع شخصيته، ما جعله يحس بالتناقض والضياع ويعاين الموت حقيقة ومجازاً، فقد عاش في الصحراء حراً سيداً فاتكاً، ولم تتقبل نفسه الحياة الجديدة المقيدة في خراسان.

وتشكل ثنائية (طريف، تالد) (مالي، ماليا، أصبح لغيري) بنية لغوية مؤثرة تجول في فكر الشاعر، إذ يتعجب من نفسه في حسرة وندم على صحبة سعيد بن عثمان، والتحاقه بصفوف الجهاد في خراسان، طمعاً بالمال، وخوفاً من جنود الحكم بن مروان، فكان الثمن أن وقع صريع الفراق والمرض ومواجهة الموت في بلاد الغربة وحيداً، وما يعبر عن ندمه قوله:

فَإن أَنْجُ مِنْ بَابَي خُرَاسانَ لا أَعُدْ إِلَيْها وإنْ مَنَّيْتُموني الأَمانِيا[2]

إنّ فقدان الشاعر ذاته في خراسان، وشعوره بالغربة، ووقوعه في المرض، جعله يبكي الماضي، ويشجب الحاضر، والشاعر لم يخش دنو الأجل بقدر ما خشي فراق العشيرة والوطن، فيبسط الأبيات في رثاء نفسه، ويطلق العنان لخياله في تصوير أحداث ما بعد موته، فيقدم تصوراً عن حالة أهله بعد رؤيتهم خيله، وقد عاد من غير صاحبه؛ إذ يقول:

فَيَا رَاكِباً إما عَرَضْتَ فَبَلِّغا بني مَالكٍ والرَّيْبِ ألا تَلاقِيَا
وعَطِّل قلوصي في الرِّكَابِ ، فإنَّها سَتَبْرُدُ أَكبَاداً ، وتُبْكِي بَواكِيا
وبالرَّملِ منّي نِسْوَةٌ ، لو شَهِدنَني بَكَيْنَ ، وفَدَيْنَ الطَبِيبَ المُدَاوِيَا

[1]) القرشي: جمهرة أشعار العرب، المصدر السابق، ص 760- 764.

[2]) البغدادي(-1093هـ): خزانة الأدب، ج2، المصدر السابق، ص204.

فَمِنْهُنَّ أمّـي ، وابنَتَاهَا، وخَالَتِي، وبَاكِيَةٌ أُخْـرى ، تُبْكي البَواكِيا[1]

يرحل الشاعر بروحه إلى وطنه، ويصنع الأحداث، ويتصور مشهد موته الجنائزي حسرة على نفسه، وإشفاقاً على حالة أهله من الفراق الذي حال بينهما، ويقيم مراسم وداع تليق بحجم حبه وحنينه إليهم، وقد نجح مالك في تصوير أصعب تجربة يمر بها الإنسان؛ إذ استطاع ترجمة محنة فراقه عن أهله، وشعوره بالغربة عن وطنه، ومرضه الذي حال دون عودته إلى الربوع، والموت الذي حرمه حتى من أن يدفن في بلاده.

الخاتمة:

استطاعت الثنائيات الضدية منح النص فاعلية جمالية في البناء الشعري من خلال الإيضاح والتوازي والتكثيف والعزف على إيقاع التضاد والمعاني المتقابلة والدلالات المتعددة، وإلى جانب حسنها في اللفظ وشدة تأثيرها في النفس، استطاعت التعبير عن خلجات الشاعر الفكرية والنفسية.

ارتبطت ثنائيتا (الشباب والمشيب) و(الحياة والموت) بمقامات فكرية ولغوية، وأغراض شعرية مختلفة عند شعراء الجاهلية والإسلام أبرزها في الرثاء والحكمة عبر عنها كلّ شاعر وفقاً لمفهومه الخاص، ومن خلال رؤاه الفكرية والفنية. ولا ريب في أنّ هاتين الثنائيتين من القضايا الإنسانية الوجودية التي تتغير بتغير الحياة الاجتماعية والدينية التي مرَّ بها الإنسان، وقد بدا التطور واضحاً في مفهومها بانتقالها من التشتت والغموض في عصر الجاهلية إلى الوضوح والنضوج في عهد الإسلام. فقد لفّ الغموض فكر الجاهلي حول حقيقة وجود الإنسان وسر الحياة ولذة الشباب ومرارة المشيب، وهذا الشتات في المفاهيم برر له اندفاع الشباب إلى الإقبال على الملذات قبل فوات الأوان، وأفول الحياة التي لا يأتي بعدها عقاب أو جزاء، أما في عهد الإسلام فقد أدرك الإنسان حقيقة الكون وعلاقته بالوجود، وأن الحياة دار اختبار وفناء، والعيش عيش الآخرة. فكانت نظرة الجاهلي إلى القدر نظرة يائسة محبطة، بينما تجلى

[1]) القرشي: جمهرة أشعار العرب، المصدر السابق، ص 766- 767.

اليقين والرضا في إيمان المسلم بقضاء الله الذي لا يثنيه عن السعي والاجتهاد ولا يوقع به في اليأس والعجز.

المصادر والمراجع:

1. ابن قتيبة: 1967م، كتاب **الشعر والشعراء**، ج2، تح أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، ط2.
2. ابن منظور: **لسان العرب**، دار إحياء التراث العلمي، بيروت، ج2.
3. أبو فرج الأصفهاني: 1935م، كتاب **الأغاني**، ج2، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط1.
4. أبو فرج الأصفهاني: 1935م، كتاب **الأغاني**، ج8، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط1.
5. اسماعيل، عز الدين: **التفسير النفسي للأدب**، مكتبة غريب، القاهرة، ط4.
6. البغدادي(–1093هـ): كتاب **خزانة الأدب ولبُّ لباب لسان العرب**، ج1، تح عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة.
7. البغدادي(–1093هـ): كتاب **خزانة الأدب ولبُّ لباب لسان العرب**، ج2، تح عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة.
8. البغدادي (–1093هـ): كتاب **خزانة الأدب ولبُّ لباب لسان العرب**، ج8، تح عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة.
9. الجرجاني(– 471): 1991م، كتاب **أسرار البلاغة**، تح محمود محمد شاكر، دار المدني –جدة، ط1.
10. حمدان، ابتسام أحمد: 1997م، **الأسس الجمالية للإيقاع البلاغي في العصر العباسي**، دار القلم العربي، حلب– سوريا، ط1.

11. الخشروم، عبد الرزاق: 1982م، **الغربة في الشعر الجاهلي**، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق– سوريا.
12. الخليل، أحمد: 1989م، **ظاهرة القلق في الشعر الجاهلي**، دار طلاس، دمشق، ط1.
13. الزركلي، خير الدين: 2002م، **الأعلام**، ج5، دار العلم للملايين، بيروت– لبنان، ط15.
14. زيتونة مسعود، علي: **الثنائيات الضدية في لغة النص الأدبي بين التوظيف الفني والذوق الجمالي**، جامعة الوادي.
15. العسكري، أبو هلال: 1991م، **كتاب الصناعتين**، تح مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1.
16. قادرة، غيثاء: 2012م، **الثنائيات الضدية وأبعادها في نصوص من المعلقات**، مجلة دراسات في اللغة العربية، العدد العاشر.
17. القرشي: 1981م، **جمهرة أشعار العرب**، تح محمد علي الهاشمي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، لجنة البحوث والترجمة والتأليف.
18. النويهي، محمد: **الشعر الجاهلي**، ج1، الدار القومية، القاهرة – مصر.